رحلة بونمان فرنسوا لويس

من تقرت إلى غدامس ودورها في الكشف التجاري للصحراء.

أ/ دعاشـي سميـرة /جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02

samer_dach@yahoo.fr

ملخص:

تعد رحلة بونمان فرنسوا لويس ذات أهمية تاريخية كبيرة، من خلالها نفهم أبعاد السياسة الفرنسية حول التجارة الصحراوية وسرّ اهتمامها ببلاد الطوارق، إذ تكشف لنا الرحلة كيف كانت فرنسا تسعى جاهدة لمعرفة كل ما يتعلق بهذه التجارة والمتحكمين فيها لهدف استدراجهم بالمعاهدات والاتفاقيات إلى غاية إحكام السيطرة على هذه التجارة.

Abstract :

Bonman's Fransoi Lwis trip counted as a great important in history, from his trip we understand fransh politic dimentions about saharian trade and its sacret interesting to Touareg town, the trip detect for us how France was looking for knowing every thing related to this trade and its own controlers aiming to draw them by alliances and agreements till dominate this trade.

مقدمة:

ظلت التجارة الصحراوية محل اهتمامات الفرنسيين طيلة تواجدهم على السواحل الجزائرية في القالة وعنابة، إلى أن تهيأت لهم الظروف خلال القرن التاسع عشر، فكان عامل التجارة الدافع الحقيقي لاحتلال الجزائر، لأنها الشريان الرئيسي الذي يربط بين مستعمراتها اقتصاديا من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي، وفي إطار التنافس الأوروبي على هذه المناطق، سعت فرنسا كمثيلاتها من الدول الأوروبية لمعرفة خبايا الصحراء، لتحويل تجارة الإنجليز من غات وغدامس باتجاه الجزائر، وهكذا أخذت تستغل كل الوسائل لبلوغ مرادها، فكانت البعثات الكشفية أحد وسائلها.

لما كان السيد بونمان عارفا للغة البلد أُستُثمرت فيه هذه الميزة، فكلف من قبل المارشال راندون للقيام برحلة من تقرت إلى غدامس لغرض معرفة أسعار منتجاتها ، ليقدروا أسعار منتجاتهم أثناء التبادل التجاري وأغراض أخرى نكتشفها من خلال تناولنا للجوانب التي عالجتها الرحلة .

عموما تؤطر هذا البحث إشكالية رئيسية تتعلق بأهداف الرحلة التي قام بها بونمان وما أضافته هذه الرحلة لتاريخ المنطقة. وتتفرع عنها مجموعة من الأسئلة منها؛ ما هي ظروف ودواعي الرحلة؟ وما هي نتائجها وكيف ساهمت هذه الرحلة في تثمين معارف فرنسا حول المنطقة؟ وما القيمة التاريخية والمعرفية التي أضافتها الرحلة لتاريخ المنطقة؟.

أولا: التعريف بصاحب الرحلة.

ولد بونمان فرنسوا لويس في باستيا (كورسيكا) بتاريخ: 18 أكتوبر 1817م، والده كان حاكما عسكريا ، نزل بالجزائر مع عائلته فاستقروا بمدينة صغيرة، على ما يبدو ببئر مراد رايس الواقعة جنوب الجزائر العاصمة وهذا استنادا إلى ما قاله **فوكون**

(**Faucon**) حين ذكر أن بونمان قد جذبته الحياة العربية بشكل غريب، فأخذ يخالط الأهـــالي باستمرار في مقهـــى شعـــبي ببئـــر مندرايس(Birmandreïs) [1] الذي يعتبر مدرسته الأولى، أين تعلم لغة البلد وتمكن منها بشكل جيد[2].

في أحد الأيام أتت مجموعة من فرسان قبيلة حجوط (Hadjouth)[3]، برئاسة الشيخ البشير أمام هذا المقهى وعند عودتها إلى مُعسكرها قام بونمان المعروف بفضوله وحبه للمغامرة ، فتبع هذه المجموعة من الخيالة، عند وصوله إلى هناك قام **بن علال** [4] (**Ben–Allal**) ، باستقبال هذا الشاب المسيحي في خيمته ومنحه اسما عربيا وهو **مصطفى** (**Mustapha**) ، هذا الاسم الذي ظهر في كتابات أبي القاسم سعد الله باسم مصطفى بونمان الجزائري، وأن حياته تشبه حياة إسماعيل بوضربة في مهنته وتكوينه.

منذ ذلك الحين أصبح بونمان بنفس منزلة **محمد بن علال**[5] الابن الصلب للشيخ. وقد عاش بونمان ظروفا صعبة في البداية، لكنه حظي فيما بعد بإعجاب الجميع لأنه أصبح فارسا لا يُشق له غبار، غير أن آثار تربيته الأولى جعلت بونمان يفهم بالفعل أنه يسير في الاتجاه الخاطئ ورأى أن طريقه لنيل عزته وشرفه هو الأنسب لشخصيته المغامرة.

في ديسمبر 1836م، انخرط كمتطوع في الفرقة الأهلية للدرك بالجزائر وكلف كمترجم عسكري مساعد وكان عمره تسعة عشر عاما. تقلد عدة مناصب منها **رقيب** في فرقة الصبايحية، إثر عودته من قسنطينة 1838م ، ثم قائد الفرقة الثالثة للصبايحية عام 1856م، وبعد عودته من رحلته إلى غدامس عُيّن **ضابطا في الفيلق عام 1857م**.

في عام 1863م تمت ترقيته إلى **قائد السرية** خارج المصلحة التي كان يعمل بها، وكان في كثير من الأحيان يكلف بالبعثات التي تستلزم الثقة والخطورة ، هذه البعثات التي يضطلع بها دائما إلى أقصى درجات الارتياح في قيادتها[6].

في عام 1837م وقع بونمان في مواجه مع فرسان حجوط ، مع واحد من أقوى الفرسان وهو الشيخ البشير وقد طلب منه الاستسلام وكان جريحا فقال له الشيخ البشير: « **وداعا أخي مصطفى، يمكن لي الآن قتلك مثل الآخرين ولكن يجب أن تتذكر حق الخبز والملح الذي أكلناه معا تحت خيمة بن علال [...]. اسمح لي أن ابتعد، لأنك تعرف جيدا أنني لن أستسلم أبدا**[7]».

كما شارك في كثير من الحملات التي شُنت على إقليم قسنطينة وقبائل الصحراء، خاصة المنطقة التي كانت تابعة للكولونال **ديفو** (**Desvaux**) في تقرت. هناك كُلف من قبل **المارشال راندون** (**Marechal Randon**)[8] للقيام ببعثة إلى غدامس وسط الصحراء في 26 نوفمبر 1856م[9].

بعد ثلاثين عاما من الكد المتواصل والبعثات الشاقة لبونمان؛ هذا الرجل الذي كان واحدا من تلك الفئات الاستثنائية التي خُلقت للحرب في أفريقيا كما وصفه **فوكون**. توفي في كال (Calle) بتاريخ: 13 جانفي 1887م، بينما كان في مهمة تفتيشية.

حضر جنازته بعض ممثلي الطرق الصوفية من التيجانية والرحمانية وبحضور المسؤولين الفرنسيين، أُخذ التابوت على أكتافهم وهو يمر من واحد إلى آخر وتم حمله إلى مخيم الزيتون في جو منسجم من الصلاة والنشيد[10]، كما ذكر سعد الله حول تشييع جنازته بأنهم حملوا النعش ثم وضعوه في عربة حملته في تابوت وقد دفن في الماء البارد

خارج قسنطينة حيث كانت أملاكه [11](D'El-Ma-BERD) على مقربة من قسنطينة [12].

وهنا يشك سعد الله في شخصية مصطفى بونمان بقوله: « **إن وجود الكنيسة والتابوت والعربة لا يدل على أن مصطفى بونمان كان من المسلمين**[13]». حسب هذه المصادر يمكن القول بأن بونمان مسيحي وغير جزائري، عاش زنديقا ودفن وفق مزيج من الدين المسيحي والإسلام[14].

ثانيا: ظروف ودوافع الرحلة.

إن ما تعرضت له فرنسا من مضايقات من طرف جورج وارنغتون الإنجليزي بطرابلس لهدف طرد الفرنسيين من المنطقة والمنافسة التجارية عبر الصحراء، ردت عليه فور احتلالها للجزائر، حيث شكلت لجنة الاستكشاف العلمي بالجزائر عام 1837م من أجل ؛ القيام بدراسة التجارة الصحراوية من خلال معرفة المبادلات، أنواع السلع، وسائل الدفع، المراكز التجارية وطرق منافذها خارج الصحراء[15]، ولإنجاح العملية وظفت كل الوسائل لبلوغ هدفها، فكانت البعثات الكشفية أحد وسائلها.

ولما كانت غدامس من المراكز التجارية التي يسيطر عليها الانجليز، قامت بإرسال عدة بعثات إلى تلك المناطق لدراسة تجارتها والسبل الكفيلة لتحويل هذه التجارة من يد الإنجليز في غدامس لصالحهم في الجزائر، حيث قامت بالتوغل جنوبا إلى غاية أن احتلوا الأغواط، فجعلوا منها نقطة ارتكاز باعتبارها بوابة الصحراء كلها وأملا في استمالة سكان الصحراء؛ عمد الفرنسيون إلى أسلوب الاتفاقيات ومعاهدات الحماية مثلما حدث مع بني ميزاب سنة 1853م والنتيجة كانت التوغل جنوبا حتى مشارف تقرت وسوف[16].

في هذه الأثناء كان الرحالة بونمان متواجدا بتقرت، فقام الحاكم العام راندون بتكليفه بمهمة إلى وسط الصحراء حيث غدامس، لغرض معرفة أسعار منتجاتها، ليقدروا أسعار منتجاتهم أثناء التبادل التجاري مستثمرين فيه معرفته للغة البلد.

هذه الرحلة تمت في غضون شهرين من يوم: 26 نوفمبر 1856م إلى غاية: 15 جانفي 1857م، ودونت بشكل نهائي من طرف صاحبها بالوادي في: 07 جانفي 1867م. بدأها صاحبها من تقرت أين كان يقوم بشن حملات عسكرية على مناطق الصحراء يوم: 26 نوفمبر إلى واد سوف، هناك انضم إلى قافلة السوافة (Souafas) [17]، لأن الفرنسيين كانوا مهتمين بسوف بدليل الوصف الدقيق الذي قدمه الرحالة حول تنظيم قوافل سوف والتركيز على علاقات غدامس معهم ومنتجاتهم.

عند وصولهم إلى غدامس ذهب بونمان وجماعته إلى بيت الحاكم **عصمان باي** (**Osman Bey**) ، فرحب بهم وتحدث إليه الرحالة حول ما يمكن أن توفره غدامس من موارد لتجار الجزائر، وطَلب من الحاكم الدخول في علاقات تجارية مع فرنسا، حيث برر له بأن هذا من مصلحته ومصلحة فرنسا، لأن التجارة هي الرابط بين الأمم وفرنسا لا تطلب سوى الحصول على علاقة معهم.

هنا ردّ عليه الحاكم بقوله: « **إن غدامس إنتاجها قليل ولكن واحتنا تشكل مخزن لسلع السودان وتُسوّق إلى تونس، طرابلس والشرق دون صعوبات في الطريق، كما نأخذ من الجزائر القمح والتمور التي لا تتوفر لدينا** [18]». بعدها تم استضافتهم بأمر من الحاكم عند أحد الأثرياء المقيمين في المدينة وبقوا فيه حتى عودتهم ، ذلك البيت الذي شبهه الرحالة بالسجن[19]، ربما يعود ذلك إلى الشائعات التي وصلت الحاكم، أن المقصود من رحلته هي استكشاف المدينة ووضع مخطط لها ودراسة إمكانياتها للاستيلاء عليها[20].

هذا ما جعل الرحالة في الغد يذهب إلى بيت الحاكم ليعلمه بمهمته لتبديد كل اشتباه به، فذكر أنه أخبر الحاكم بشأن الرسالة التي وصلته من وادي سوف قبل وصوله، فصارحه بأنه في خدمة فرنسا وقال بأنه نقيب في فوج الصبايحية لدى الحاكم العام للجزائر، الذي وثق به وطلب منه أن يقوم بدراسة واستطلاع حول الطريق من وادي سوف إلى غدامس وتفحص كل شيء يتعلق بالمصالح التجارية في غدامس.

هنا يُبرر موقف فرنسا من هذا كله؛ بحجة أن الفرنسيين يعرفون أن نقص المياه يشكّل عقبة رئيسية أمام تنقل القوافل بأمان وهي تريد مساعدة شعب الصحراء وصممت على حفر الآبار ، إذا كان ذلك ممكنا عبر الخطوط الأكثر شعبية[21]. فتحدثا عن نهر تامرنة ووادي ريغ وما يقدمانه من فوائد ، لهدف رواج التجارة وتسهيل عملية المعاملات بسرعة، مشيرا أن الفرنسيين يريدون أن يمتدوا إلى المناطق التي تحيط بالجزائر لتكون القاعدة للتحكم في ممتلكاتهم الأفريقية، وهو يتمتم ويقول: "**إن الحاكم لا يفهم كلامي ولا يبصر حقيقة مهمتي**[22]"، وبالفعل بعدما أنهى الرحالة كلامه أعرب الحاكم عن ارتياحه.

منذ ذلك اليوم أصبحت علاقتهما لطيفة جدا[23] وبعد مكوثه هناك لمدة أسبوع قرر العودة لأن الأوامر التي تلقاها لا تسمح له بالبقاء أكثر من أسبوع في غدامس[24]، إلا أن إصرار الحاكم في بقائه لمدة خمسة عشر يوما آخرين، جعل عودته إلى الجزائر تُستأنف يوم: 15 جانفي 1857م[25] بدلا من: 24 ديسمبر 1856م[26]. خلال هذا الوقت استفاد الرحالة من معرفة أماكن المياه في جميع النقاط وجمع كل المعلومات الأساسية التي يبدو من المرجح أن تجعل مهمته ناجحة، رغم صعوبة هذه المهمة ، لأن الشعب الذي زاره لأول مرة كان كثير الأسئلة مقابل الرد على أسئلته[27].

ثالثا: أهمية الرحلة ونتائجها.

إن هذه الرحلة كنص تاريخي هامة جدا ، رغم صغر حجمها إلا أنها تحتوي على معلومات قَيّمة في جل جوانبها التاريخية، السياسية ، الاقتصادية، الثقافية ، العمرانية والاجتماعية، غير أن الجانب الاقتصادي قد غلب على الرحلة لأن غرض الرحلة تجاري في الأساس.

أ. الجانب التاريخي والسياسي:

تقدم لنا هذه الرحلة معلومات تاريخية وسياسية مهمة حول مدينة غدامس والأوضاع السائدة آنذاك، حيث أفادتنا الرحلة أنه خلال سنة 1956م كانت غدامس لا تزال تحت حكم الدولة العثمانية، حيث أشار الرحالة إلى الضرائب التي تدفعها المدينة كل ثلاثة أشهر للباشا في طرابلس تدعى اللزمة (Lezma) ، بالإضافة إلى ذلك؛ الحاكم عصمان باي يحصل على فوائد أخرى مثل بيع العبيد ويستفيد أيضا من ضرائب دخول الإبل وخروجها من المنطقة[28].

باعتبار أن شعب الطوارق كانوا محل اهتمام الفرنسيين، فقد استطاع الرحالة الحصول على بعض المعلومات من خلال مشاهداته وعن طريق روايات تجار غدامس حول هذا الشعب القوي، وبهذا قدمت لنا الرحلة معلومات مهمة حول أقسام الطوارق، ونظام حكمهم ومدى قوتهم وتحكمهم في مساحات شاعة من الصحراء، حيث قال عنهم الرحالة بأنهم منقسمين إلى إقليمين كبيرين طوارق الغرابة وطوارق الشراقة، وهذان القسمان بهما العديد من الفرق وكل فرقة يحكمها رئيس من النبلاء والأشراف[29] يعين عن طريق الاقتراع، يقول عنهم الرحالة بأن هذه الفئة ذات مكانة عالية في المجتمع التارقي، يتكونون من محاربي البدو الرحل ويسكنون الهضبة[30].

كما أورد الرحالة قائمة بأسماء أهم قادة الطوارق؛ في الجهة الشرقية ذكر: سي الحاج محمد خنوخن (أقوى من الجميع)، سي محمد بن سلطان، عثمان بن بكري، محمد

بن جبور، موسى بن كليبة، البركة وفنديقون، ومن الناحية الغربية نجد: سي الحاج أحمد بن بكري من الاهقار، محمد بن قيوق، محمد بن بيسة، الشيخ بن آفو[31].

ب. الجانب الاقتصادي:

لقد غلب على هذه الرحلة الطابع التجاري، فصاحب الرحلة كان مكلفا من قبَل **المارشال راندون** الحاكم العام للجزائر، ليجمع له أكبر قدر ممكن من المعلومات التي تهم الفرنسيين في هذا المجال وهكذا زودتنا هذه الرحلة بمعلومات هامة عن تنظيم القوافل وسيرها والأخطار التي قد تتعرض لها وكيفية مواجهتها.

ففي طريقه إلى غدامس رافق قافلة السوافة وقام بوصفها وصفا دقيقا كما لو أنها محورا أساسيا في رحلته؛ فيذكر أنها تتكون من رئيس ، دليل، تجار وجمال وبعدها أشار إلى وظيفة كل من الرئيس والدليل؛ الرئيس مكلف بتسوية النزاعات واتخاذ التدابير اللازمة في حالة تعرض القافلة للهجوم والدليل يوجه طريق القافلة ويبين أماكن التوقف والاستراحة.

كما يبين لنا الرحالة نظام سير القوافل؛ فيقول أن التجار يسيرون على الأقدام مع الدليل أمام الحيوانات المحملة بالأمتعة والإبل تمشي من وراء، على مسافة من هؤلاء هناك جماعة من الخلف تراقب الإبل التي تخرج عن الطريق ، إضافة إلى وجود اثنين أو ثلاثة من الإبل مزودة بالمؤن؛ من تمر، دقيق، شعير ، لحوم الأغنام المجففة وقليل من الزيت ويضيف أن لكل تاجر اثنين من قرب الماعز مملوءة بالماء ، أما عن كلأ الإبل فتحصل عليه من المراعي في الطريق.

وعن فترات سير القوافل يشير إلى أن القافلة تبدأ سيرها بعد شروق الشمس، ثم تستريح في مكان يخيم فيه كل تاجر مع سلعه وإبله حوله، حتى العصر تواصل سيرها،

كما يفيدنا بهذا الصدد أن هناك مدة استراحة في الصباح حوالي العاشرة صباحا لا تدوم أكثر من خمس وعشرين دقيقة.

عن مجابهة المخاطر؛ يذكر الرحالة أنه يتم تسليح جميع الرجال وفي حالة الهجوم تتوقف القافلة وتضع البضائع والإبل حولها والأشخاص من وراء البضاعة وهنا يتم إضرام النار وإطلاقها. في ختام حديثه عن القوافل أشار إلى القافلة التي صحبها، فذكر عددها الذي يتألف من خمسة عشرة فردا وقائد اسمه **أحمد بن التواتي** (**Ahmed Ben Touati**) ودليل ، خمسة تجار وثمانية إبل ، إضافة إلى خمسة وعشرين جملا محملين بالبضائع وستة دواب مستخدمة للركوب[32].

وفي إطار مهمة تفقد مصادر المياه للمنطقة، أتى الرحالة على ذكر نافورة نسبة تدفقها معتبر، لكنها تكفي لتزويد المدينة والبساتين بالمياه، فهي محصورة في بقعة مستطيلة طولها 25 متر وعرضها 15 متر وتشكل حوضا يسمى البرح (barh) ، تنطلق من كل زواياه قنوات يصرف جزء منها في المدينة والجزء الآخر للبساتين، يقوم عليها حارس يقضي يومه في كوخ يقع على بعد حوالي 150 متر من رأس الساقية التي يحرسها، لأنه مكلف بتوزيع المياه المخصصة للسقي على أصحاب الأراضي، حيث يستفيدون من الماء بمدة متساوية. كما يوجد بالمنطقة العديد من الآبار يقوم عليها السود، حيث يتم دفع أجور لهؤلاء بـ 50 سنتيم يوميا، اثنان من هذه الآبار تعود للسيد الحاج محمد متيتان (hadj Mohammed Mettitan) أحد أعيان المدينة[33].

هذا وتزودنا الرحلة بمعلومات هامة عن تنظيمات وقوانين غدامس، إذ يذكر الرحالة أن بها متجرا في وسطها على رأسه نقيب من مهامه رصد العملات ووزن النقود وغبار الذهب، أهمية غدامس لا تكمن في منتجاتها بل في التبادل التجاري، حيث أشار إلى أهم السلع والمبادلات التجارية بين غدامس والمتعاملين معها من سوافة، سودانيين، تونسيين، طرابلسيين وفيلاليين.

عن السلع التي يجلبها السوفيون ذكر أنهم يجلبون معهم كل من التبغ، القمح، الشعير، الزيت، التمور بنوعيها دقلة نور، قارس ولحم الغزال . كما يجلب السودانيون أسنان الفيلة بكميات كبيرة، الأقمشة القطنية، جلود الماعز الفيلالي، البخور، غبار الذهب (Poudre d'Or) والصمغ الأبيض.

وعن المبادلات التجارية يذكر صاحب الرحلة ما يحمله التونسيون والطرابلسيون من أسواق غدامس إلى بلاد السودان من المرجان، الحرير بكميات هائلة، السكاكين والأقمشة من كل الألوان، البرانس، الفساتين، الشاشيات، المصنوعات الزجاجية والتمور. بالإضافة إلى ذلك يشير الرحالة إلى أنه لا توجد أية قافلة عائدة من الجنوب بدون عبيد وهم يباعون علنًا في أسواق غدامس.

كما تفيدنا الرحلة في معرفة وسائل التبادل التجاري المستعملة وقتها ، تحدث صاحب الرحلة عن المكاييل التي عادة تستعمل لكيل الحبوب وما شابهها من المواد اليابسة وكذا المواد السائلة مثل الزيت والعسل، حيث أشار إلى مكيال يسمى الصّاع (Saâ) في الجزائر يساوي 160 لترا، غير أنه في غدامس يساوي 120 لترا، يذكر أن سعر نفس الصاع من الفول السوداني يساوي: 1 فرنك و50 سنتيم ، نفس الصاع من الشعير يساوي: 75 فرنك، كما حدد المكيال (la Livre) كيل القهوة والسكر.

أما عن الأوزان[34]؛ فيذكر المثقال (Mitkal) لوزن غبار الذهب وسبائك الذهب المنصهر، أما عن العملة فذكر الفرنك والدورو ولم يشر مطلقا للمقايضة.

عن الأسعار؛ سنة 1856م، أفادنا الرحالة بشيء من التفصيل عنها ، فتطرق إلى ذكر أسعار كل السلع التي تصل غدامس من الشمال كما يلي:

المادة	السعر	المادة	السعر

صّاع 120 لتر من القمح	75 فرنك	الأغنام	58 فرنك
صّاع 120 لتر من الشعير	45 فرنك	الماعز	20 فرنك
دقلة نور	35 فرنك	الغزال	5 فرنك
قنينة من فاصوليا السودان	1,50 فرنك	50 كيل من أسنان الفيلة	600 فرنك
قنينة من الفول السوداني	1,20 فرنك	1 مثقال للذهب المنصهر	6,50 فرنك
ليرة من السكر	1,20 فرنك	الجلود المدبوغة نوعية رفيعة.	2,50 فرنك[35]

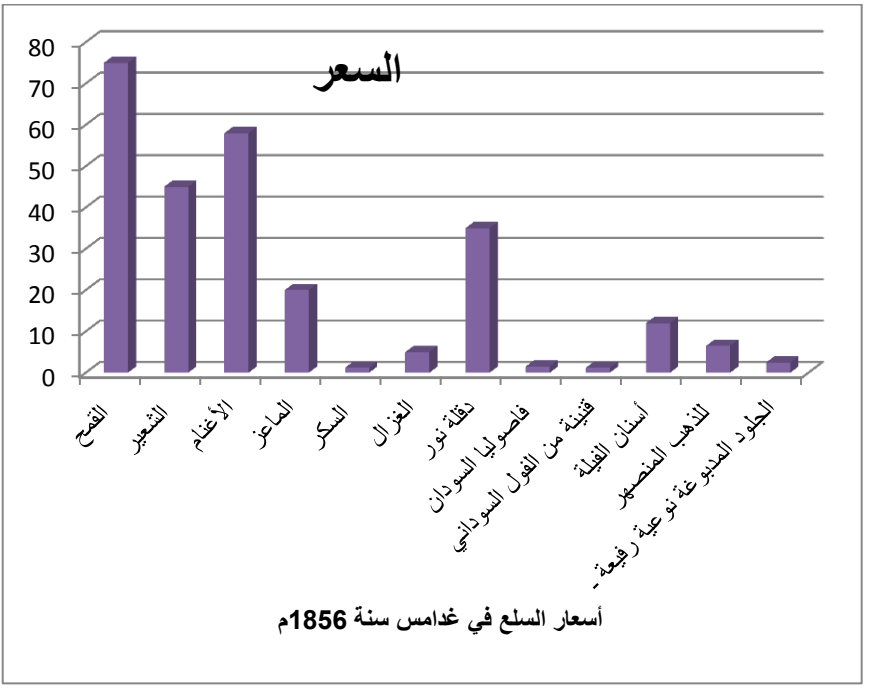

أسعار السلع في غدامس سنة 1856م

من خلال الجدول والمخطط البياني نستنتج أن السلع التي تصل غدامس من الشمال والسودان تكون غالية الثمن نتيجة بعد المسافة، كما أن بعض المنتجات مصدرها الشمال مثل الحبوب التي تصل الصحراء، الأمر الذي يفسر غلاءها.

كما أشار الرحالة أن أسعار بعض السلع تتغير من مكان إلى مكان وبالأخص تجارة العبيد، إذ ذكر أن سعر الشاب القوي قيمته من 5 إلى 6 دورو (Dourou) وعند وصولهم إلى الواحة يدفعون 35 -40 دورو لسبب اقترابهم من مواقع الماء، كذلك مسحوق الذهب يباع في قسنطينة 22 فرنك لـ 1 مثقال، في حين يباع في غدامس بـ 11 فرنك وهذا يدل على نسبة الفوائد الكبيرة التي يحصل عليها التجار من الأسواق الغدامسية.

كما تفيدنا الرحلة في ذكرها لأهم المراكز التجارية التي كانت تتعامل معها قبائل صحرائنا الجزائرية مثل غدامس، تنبكتو، المغرب وغات ، غير أن غدامس ليست سوى محطة تخزين للسلع بين شمال إفريقيا وجنوبها، وأهم هذه المراكز هي غات لأنها أكبر أسواق إفريقيا الذي يدوم أربعين يومًا، أين يتم إيداع جميع منتجات القوافل من الشمال والجنوب.

يبدو أن صاحب الرحلة لم يترك شيئا يتعلق بالتجارة إلا وذكره، بالإضافة إلى ذكر السلع وأسعارها ووسائل التبادل التجاري، تحدث عن الضرائب فيقول أن غدامس تدفع ضريبة كل ثلاثة أشهر للباشا في طرابلس تدعى اللزمة (Lezma) وتقدر بـ: 9.000 فرنك بالإضافة إلى ذلك؛ الحاكم يحصل على فوائد أخرى مثل:

- بيع الزنوج بـ: 35 فرنك،
- الإبل بـ: 5 فرنك،
- دخول وخروج الإبل بـ: 10 فرنك من المنطقة[36]، ...إلخ.

إن ما يفسر لنا حماية الطوارق للسلع المارة مقابل أتاوى تقدمها القوافل، يظهر لنا جليا من خلال ما أشار إليه الرحالة عن أسعار نقل البضائع وفقا لمعلومات يقدمها النقيب التجاري في غدامس للتجار مثل:

- من غدامس إلى الواد بـ 40 فرنك لـ 200 كلم،
- من غدامس إلى غات بـ: 30 فرنك،
- من توات إلى تنبكتو بـ 90 فرنك، ...الخ.

وفي الأخير أشار الرحالة إلى أسماء القبائل التي تنتمي إليها هذه القوافل التجارية وهي: صنعون (Les Sinaoune)، رونجابن(Les Rondjebane), المحاميد (Les Et Mahamid)، الحوامد(Les El Haouamed) ، المحموديين (Les O. Mahamoud)، الجرجيين(Les Djerdje) ، دوقاتيين (Et les Degatta)[37].

ج. الجانب العمراني:

لقد تحدث الرحالة بشكل مفصل عن الجانب العمراني لمدينة غدامس التي امتزجت بين سحر الطبيعة الصحراوية والبنيان، فقال مدينة غدامس كبيرة جدا محاطة بالنخيل وبها حصن يتمثل في جدار طوله أكثر من ثلاثة أمتار، يتم الدخول إليها من عدة أبواب أهمها الباب الشرقي، من هذه الجهة هناك تلٌّ من الرمال في شكل نصف دائري من خلالها نستطيع رؤية كل نخيل المدينة، بين هذا التلّ والحصن توجد مقبرة أين لاحظ الرحالة قبورها مزينة بأناقة بواسطة بيض النعام، وقبل تجاوز باب الغربي للولوج إلى المدينة نفسها، يجب عبور البساتين التي تشكل حول غدامس حصنًا ثانيا أكثر صعوبة من الأول، فكل قطعة أرض محاطة بجدار وبالتالي بين الحصن والمدينة يتخللها النخيل والجدران.

ولما دخل المدينة ذكر أنها تنقسم إلى سبعة أحياء بها تسعة شوارع رئيسية، ولكل حي شيخه ومسجده، المساجد تتميز بأنها مقسمة إلى جزأين واحد

للنساء والآخر للرجال، أما البيوت فجزئها العلوي مغطاة بسقف مسطح، بها شوارع على شكل أروقة جد مظلمة، فقط توجد بعض النوافذ التي ينفذ منها ضوء خافت، على سطح كل بيت هناك سرير مبني على شكل قبر بزي إسلامي.

أما عن حي الطوارق فهو معزول عن باقي المدينة ويقع على يمين باب الدخول، يتكون من سبعة إلى ثمانية بيوت، بحيث كل مسكن معزول عن المساكن المجاورة له كما هو الحال في بيوت شمال إفريقيا(38)، هذا وأشار إلى بيوت الطوارق الذين يعيشون تحت الخيام فقال خيامهم من جلد الثيران ومصبوغة بالأصفر وهي خيمات ذات أشكال تشبه الخيمة العربية، الخيمة من الداخل مزينة بزرابي جميلة يجلبونها من تركيا وطرابلس هذا عند الأثرياء، أما الفقراء فداخلها مزين بجلد النمور أو جلد الثيران(39).

هذه المدينة لا يتوفر بها فنادق، أما التجار الذين يؤمونها من هنا وهناك ينزلون عند بعض الأصدقاء، وفيهم من المسافرين من يذهب إلى دار الضياف(40).

د. الجانب الثقافي والاجتماعي:

في إطار المسح الاثنوغرافي والانثربولوجي للمجتمعات الصحراوية، اهتمت الرحلات بهذا الجانب اشد الاهتمام وهذا حتى يفهموا عقلية سكانها ومعتقداتهم وعاداتهم لاستدراجهم لتقبل الطرف الآخر، وهكذا جاءت رحلة بونمان استجابة لهذا الغرض، حيث أولى الرحالة اهتماما بالغا بالمجتمع التارقي لأنهم العقبة الكبيرة التي تقف أمام الفرنسيين لعبور الصحراء.

حيث أشار إلى الجانب التعليمي لهذا المجتمع فقال أن سكان غدامس يهتمون بتعليم أطفالهم حيث يترك الأولياء أبناءهم في المدرسة طيلة اليوم حتى لا يتجولون في الشوارع، لكن تراه يقول من جانب آخر أنه قلّما تصادف غدامسي يعرف القراءة، أما

نسائهن يحسن القراءة والكتابة[41] بالبربرية التي هي لغتهم، حيث أطلعه عصمان باي بأن النسوة يتعلمن في المساجد القرآنية.

كما يشير الرحالة إلى الديانة والطريقة الصوفية التي يتبعها الطوارق فيقول عنهم مسلمون وينتمون إلى الطريقة التيجانية لكن عاداتهم وسلوكهم يختلف عن العرب، فالرجل التارقي له زوجة واحدة شرعية ويرفضون الدعارة ولا يقبلون الطلاق، وللنساء تأثير كبير على الرجال المخلصين لهن[42]، كما أن سكانهم قليلو المعاشرة لبعضهم البعض وكل عائلة تعيش تقريبا في عزلة عن العائلات الأخرى.

أما شوارعهم تخلو من النساء عدى الخادمات الزنجيات والرجال العبيد والأحرار، وتقتصر حركة نسائهم في الطابق الأول من البيوت أو على السطوح كميدان مخصص لهن، حيث يوجد سوق الخضر والسلع والمنتجات المتنوعة، أما الرجال يتجولون في المدينة لقضاء حاجياتهم أو في الداخل لحراسة بساتينهم ونخيلهم، ويحتلون الطابق الأسفل من البيوت والأروقة المظلمة، أما شوارعهم بها محلاتهم المغلقة لأنها تمثل كمخازن يجمعون فيها سلعهم التي يتبادلونها مع التجار الذين يفدون إلى المدينة[43].

يمتلك الطوارق قطعان كبيرة من جنس ممتاز، جمالهم جميلة وقوية في السباق وهذا يعني أن الجمال التي تستخدم للركوب جد نادرة في الجزائر، أما غنمهم من جنس سوداني ومعزهم مختلطة؛ البعض منها به شعر طويل والأخر شعره قصير، كما لديهم بعض الأحصنة من السودان أو المغرب، أما أحصنة السودان يقول عنها الرحالة حسب الأوصاف التي ذكرها له تجار غدامس بأنها ذات قامة قصيرة ورؤوسها صغيرة وآذانها قصيرة.

كما يطلعنا الرحالة عن خصال أهل الطوارق في الكرم والجود، فقال أن شعب الطوارق مضياف إذا مرّ مسافر بديارهم فإنه يستقبل من طرف أحد النبلاء، فيقوم هذا الأخير باختيار ناقة من قطيعه ويذبحها ويتقاسمها مع أهالي العشيرة، ولا يحتفظ إلا بجزء

صغير ليهديه إلى ضيفه مع الطعام، هذا الطعام يقدم في قصعة كبيرة مملوءة بالكسكسى ولعصيدة وحليب النوق وهو المشروب المفضل أثناء الوجبات، أما الطوارق لا يأكلون ولا يشربون أمام الضيوف، وإنما يتناولون طعامهم فيما بينهم، لا ينزعون اللثام الذي يغطي جزء من وجوههم ويمررون فوق هذا اللثام طعامهم وشرابهم.

هذا وذهب الرحالة بعيدا بوصفه الدقيق للمرأة التارقية في زينتها وشكلها ولباسها ، فقال نساء الطوارق يضعن على أجساهن وأوجههن مادة النيلة الزرقاء وعلى وجنتيهن يضعن بقع حمراء وأيديهن سوداوات بواسطة مادة تضفي اللون الداكن، أما شكلهن فقال بأن أعينهن واسعات سوداوات وشعرهن طويل ينزل على ركبتيهن ورؤوسهن مكشوفة يقسمن شعرهن بخط مثل الفرسان، أما أذرعهن طوال مفتوحان يمسان الأرض، أما لباسهن فهن يرتدين جُبَب من قماش سوداني ومطرز بألوان متنوعة، وفوق هذا اللباس ترتدي النساء الترقيات رداء من القطن أو الحرير مخطط بالأبيض، الأسود والأحمر فيزيدهن أناقة، جزء من هذا الرداء يغطي الجسم والجزء الآخر مرفوع على الكتف الأيسر ومقدمة أذرعهن مزينة بحلي سودانية من ذهب وفضة[44].

خاتمة:

من خلال ما تقدم نستنتج أن هذه الرحلة لا تخلو من فوائد تاريخية هامة بحيث:

- قدم لنا الرحالة وصفا دقيقا حول تنظيم القوافل والمسالك المؤدية إلى جهة غات وغدامس ، فقد ركز على المسالك المؤدية بجهة الصحراء الجزائرية والسودان، باعتبارها محل اهتمام الفرنسيين ، محددا الهدف وهو غات لأنها أكبر أسواق السودان ، كما أوضح بدقة أسعار كل السلع وفصل بين سلع الشمال وسلع السودان.

- هذه الرحلة أتت بنتائج قيّمة، الأمر الذي حفز فرنسا على بعث رحّالة آخرين إلى غدامس في وقت لاحق مثل **دوفيريي** (**Duveyrier**) ، للتعرف بشكل كامل على البنية الاجتماعية والدينية والنفسية لسكانها، بدليل ما ورد في رحلة بونمان أنه تأسف كثيرا لأنه لم يستطع زيارة كل البلاد وتمنى أن يزورها أحد آخر ليقدم معلومات عن هذه القبائل بشكل مفصل أكثر مما ذكره.

- كما أن المعلومات التي جمعها عن القادة الرئيسيين للطوارق وحرص سكان غدامس وحاكمها على فتح علاقات تجارية مع الجزائر الفرنسية، تجلى ذلك في استدعاء زعيم الطوارق الديني **الشيخ عثمان** لزيارة العاصمة وقسنطينة خلال فترة حكم **المارشال راندون** ومرة أخرى في عهد **الماريشال الدوق دومالاكوف بيسلي** لزيارة العاصمة وباريس، انتهت بإمضاء المعاهدة التجارية من طرف **الشيخ ايخنوخن** نيابة عن القبائل الأخرى.

الهوامش:

(1). كانت تدعى أنذاك بيرموندرايس وهو تحريف للتسمية العربية بئر مراد رايس (Bir-Mourad-Rais).

(2). Faucon Narcisse , **Le livre d'or de L'Algérie**, T.1, librairie Algérienne et coloniale, Paris, 1889, p 88.

(3). **قبائل حجوط:** هم خليط من الفرسان المغامرين، يسكنون قبائل متيجة الغربية والوسطى ، كما تسكن قبائل بني علال متيجة الوسطى ، خلال العهد العثماني وُضعوا تحت أوامر خوجة الخيل التابع لدار السلطان وهم قبائل كثيرة القتال في الفترة الاستعمارية. **للمزيد أنظر** :

- Louis Rinn , **le royaume d'Alger sous le Dernier Dey** , Imp. libraire Editeur, Alger, 1900, p 22 ,27,
- Faucon Narcisse , Op.cit, p 87.

- Lacène Khelil El Berkani , **Au pays des Hadjoutes ou Hadjout, tribu et ville (1052–1952)**, T.1, S.M.E, S.L.E, S.D , p 5.

(4). **ابن علال:** ينتسب لإحدى أكبر العائلات الشريفة، التي تنحدر من سيدي علي مبارك الذي استقر في القرن 17 قرب زاوية القليعة ، في وسط متيجة ، **للمزيد أنظر:**

- Louis Rinn , Op.cit , p27

(5). **محمد بن علال بن مبارك:** ولد حوالي سنة 1814م تلقى تكوينا دينيا صوفيا ، تربى على يد عمه الحاج محي الدين الصغير سيدي أمبارك، شارك إلى جانب عمه في أكتوبر 1832م في معركة بوفاريك وهي أول مواجهة كبيرة ضد الجيش الفرنسي منذ الاستيلاء على العاصمة في جويلية 1830م، تم إلقاء القبض عليه فيما بعد وسجن في **العاصمة** لمدة عامين، ثم أطلق سراحه سنة 1834م بعد المعاهدة التي وَقّعها الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشال. ولكن السّلم لم يدم فشارك محمد بن علال في عدة معارك ضد الفرنسيين إلى جانب عمه في سهول متيجة. تم استئناف الحرب بعد وفاة محي الدين الصغير في جويلية 1837م وخلف محمد بن علال عمه الحاج محي الدين في مليانة، أعاد تجديد الحلف الذي جمع بين عائلته والأمير عبد القادر من أجل تنظيم المقاومة وأصبح بداية من 1837م خليفة الأمير في مليانة. استشهد في معركة واد المالح قرب الحدود المغربية على يد الجيش الفرنسي في 11 نوفمبر 1843م. **أنظر:**

- مؤلف مجهول، **مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف (دراسة خاصة بمدينة متوسطة في الجزائر)**، د.د.ن، د.م ن، د.ت، ص 143-144.
- **محمد بن علال**، مقال بالموقع الإلكتروني لبلدية القليعة.
- يوم: 25 ديسمبر 2014 ، على الساعة: 22 و47 د. www.apcdekolea-dz.com

(6). faucon , Op.cit, p 91.

(7). Ibid, p 89.

(8). **المارشال راندون:** عمل الماريشال راندون في معسكر كقائد المقاطعات العسكرية سنة 1841م وكقائد ملازم عام سنة 1848م، ثم مدير أعمال بالوزارة الحربية للجزائر ، استمر في استخدام حماسته وخبرته في خدمة المستعمرة السودانية، بفعل مؤهلاته العالية تم لفت الانتباه له، حيث استدعته الخلية الحربية سنة 1851م وقفل راجعا إلى الجزائر كحاكم عام 11ديسمبر 1851م إلى غاية إنشاء إدارة خاصة للمستعمرات بالجزائر في 24 جوان 1858م. تميزت حكومته بإرسال شحنات كبيرة من الجيوش إلى بابور وقبائل جرجرة وحتى الجنوب لاحتلال الأغواط وتقرت وخضوع بني ميزاب وسوف حتى الصحراء الكبرى. توفي في جنيف 16 جانفي 1871م. **أنظر:**

- Ibid, p 461-462 .

- أحميدة عميراوي وآخرون، عميراوي أحميدة و آخرون، **السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916)**، درا هومة، الجزائر، 2009 ، ص 45.

(9).Faucon ,Op.cit p 89-91.

(10). Ibid , p 95.

(11). أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954م)**، ج7، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2007 ، ص 462- 463.

(12).faucon, Op.cit, p 95.

(13). أبو القاسم سعد الله، **المرجع السابق**، ص 462- 463.

(14). faucon , Op cit , p 95.

(15). جمال قنان ، **قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر**، المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر ، الجزائر، 1994، ص 139

(16). أحميدة عميراوي وآخرون، المرجع السابق، ص 45-46.

(17). faucon, Op.cit , p 90.

(18).Bonnemain, « **Voyage à R'ADAMÈS** », R.A.C, décembre 1859, , Imp. de CH.LAHURE et C^{IE}, Paris , 1859, p 118.

(19).Ibid, p 119.

(20). faucon, Op.cit, p 91.

(21). Bonnemain , Op.cit, p 120.

(22).Ibid,p 120.

(23).Ibid,p 121.

(24). Faucon, Op.cit, p 91.

(25). Bonnemain , Op.cit, p 117.

(26). Faucon, Op.cit , p 90.

(27). Bonnemain , Op.cit , p 132.

(28). Ibid, p 126-127.

(29). يسمون عند الطوارق **بالإيماجاغن** (**Imajaghen**) مفردها أمجاغ ومؤنثها تاماجاكن وهي طبقة النبلاء أو الأشراف وتحتل المرتبة العليا في المجتمع، وهي الأقلية الارستقراطية وأصحاب السلطة السياسية مشكلة من أناس اشتهروا بالحروب في الماضي، وأهمها قبائل كال غلة في كونفدرالية الأهقار وقبيلة أورارن عند كيل ازجر. **ينظر**:

- إبراهيم بتقة، **"جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدى قبائل الطوارق خلال القرن 19 م"**، مقال نشر في كتاب الملتقى الوطني الثاني حول، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر من خلال المصادر المحلية، مطبعة منصور ، الوادي، 2012، ص، 271.

(30). Bonnemain , Op.cit , p 127

(31). Ibid, p 130-131

(32). Ibid, p116- 117.

(33). Ibid, 122-123.

(34). Ibid, p 125.

(35). Ibid , p 126.

(36). Ibid, p 126-127.

(37). Ibid, p 125.

(38). Ibid, p 121- 122.

(39). Ibid, p 128.

(40). Ibid, p 122.

(41). يقصد هنا كتابة التيفيناغ.

(42). Ibid, p 127.

(43). Ibid, p 123.

(44). Ibid, p 127-128.